حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثامن . شوال ١٤٣٩هـ / تموز ٢٠١٨م

٨

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد محمد مجيد الموسوي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

عروبة المتنبي
وسرّ شهرته

الأستاذ الشيخ علي الشرقي(*)
أديب، شاعر، وزير سابق

ألف عام وابن الكوفة مادة الأدب الحي، في الأقلام، وعلى الشّفاه، بحثت عنه مئات الكتب والرّسائل وهو بعد محتاج إلى البحث والدّرس، وتاريخ الأدب العربي ينتظر الموفق الّذي يدرس هذا النّابغة وآثاره دراسة قيمة ومجدية فيقدمه لنا واضحاً، يقدمه كحلقة من السّلسلة الذّهبية للأدب العربي مرتبطة الطّرفين بما قبل وما بعد، يقدمه كواسطة بين نظامين، يقدمه كنتيجة للماضي وعلة للمستقبل.

لقد اشتركت في تكوين الشّاعر وإلهامه علل وأسباب، منها المادي ومنها المعنوي، فإنّه لم يكن كقرص الشّمس مستقلاً بنوره وإشعاعه بل هو نتيجة لكثير من الماضي ومتصل بالحاضر الّذي هو فيه كلّ الاتصال، يستل من هذا ومن ذاك مثلاً للمستقبل، وعمل هذا النّابغة كما قيل في عمل غيره وصفي لا وضعي.

لم يتيسر لي تعريف للمتنبي وتحليله كأديب عالمي، وكلمتي هذه في تعريفه كأديب عربي، المتنبي كما اعتقد ثمرة العروبة والعروبة وحدها عملت على تكوين هذه الثّمرة ونضوجها، فالحالة السّياسية العربية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية الّتي وجدت في زمانه ومكانه هي الّتي أصهرت هذه السّبيكة فكانت قلب الشّاعر الحساس تستعرضه النّوادي الأدبية مرآة ارتسمت فيها الصّور الخلابة، وفي الإلمام بتلك النّواحي تحليل لأدب المتنبي وشخصيته.

مدينته:

لقد اقتضب الكتاب والأدباء الّذين حللوا أدب المتنبي ذكر مدينته «الكوفة» وأوجزوا البيان عن ذلك المصر كأنّه لم يكن قاعدة العالم العربي في حين من الدّهر ولم يكن مصدراً لتلك الثّقافة العالية معتذرين بشحة المصادر وقلة الآثار وإنّي كعراقي كوفي أحاول سد هذه الثّغرة في التّاريخ العراقي حتّى ولو استلزم التّبسط في تخطيط الكوفة فإنّها بلد المتنبي والوسط الّذي نشأ فيه، ولها في تكوينه مزايا وعناصر، ولا بد من تسجيل الشّكر المستشرق «لويس ماسنيون» على ما جاء في رسالته «تخطيط الكوفة» باللغة الفرنسوية.

مصرت الكوفة في العام السّابع عشر للهجرة وتكاملت كمدينة أكواخ في خمس سنوات وفي عهد المغيرة نهضت جدر من اللبن غير المشوي تقبعها خيام ومضارب بصورة ثابتة وعلى عهد زياد شيدت بالآجر وأوّل ما شيد بالآجر أبواب الدّور وأوّل دور نهضت من هذا النّوع كانت في شارع كندة الّتي هي محلة المتنبي وخططت الكوفة من جانبين شرقي الجامع وغربيه فالجانب الشّرقي وهو الأفضل والأقرب من الماء لليمانيين والغربي لنزار وقد قسمت إدارتها إلى أرباع، على كلّ ربع زعيم يقوم بإرادته، أمّا تقسيمها من حيث التّخطيط فكان ذلك المخيم الواسع موزعاً توزيعاً عسكرياً يتألف من سبعة أفواج كل فوج يضم قسماً من محلاتها المعروفة باسم قبائلها ولم تكن في الكوفة أولاً شوارع بل كانت خليطاً من تجمعات سبع كلّ مجموعة من عدة عشائر تنزل في جهة وكان العرب أوّل هبوطهم إلى العراق ينزلون الشّواطئ من الرّيف والسّواد ويبنون بشكل هندسي مكون من خيمتين خيمتين وإذا طغى النّهر ارتفعوا عن الشّواطئ ملتجئين إلى المخيمين الكبيرين البصرة والكوفة، وإليكم التّقسيمات السّبعة الّتي كانت عليها الكوفة:

الأوّل: كنانة وحلفاؤها، وجديلة وقد كانت هذه القبائل سناد العامل في الكوفة من زمن سعد إلى العهد الأموي وهم المعروفون بأهل العالية، كان لهم العدد الأوفر ولكنه أخذ يتضاءل تدريجياً.

(*) عن: مجلة الاعتدال النجفية السنة ٤ ع ١ و ٢ و ٣ لسنة ١٩٣٦-١٩٣٧م.

الثّاني: قضاعة وبجيلة وغسان وخثعم وكندة وحضرموت **والأزد.**

الثّالث: مذحج وحمير وهمدان وقد لعب هذا القسم دوره في حوادث الكوفة وكانت له المواقف البارزة.

الرّابع: تميم ورباب.

الخامس: بنو أسد ومحارب ونمر من بني بكر وتغلب وأكثرية هؤلاء من ربيعة.

السّادس: أياد وبنو عبد القيس وأهل هجر والحمر، والأولان من هذا القسم بقية قبائل كانت تقيم هناك من السّابق، أمّا بنو عبد القيس فقد هبطوا من البحرين تحت زعامة زهرة بن حوية، وقد كان الحمر حلفاء زهرة وينزلون معه وهؤلاء الحمر عدتهم أربعة آلاف جندي فارسي يسمون جند شاهنشاه كما ذكر البلاذري: استأمنوا يوم القادسية على أن ينزلوا حيث أحبوا ويحالفوا من أحبوا ويفرض لهم في العطاء فأعطوا الّذي سألوه وكان لهم نقيب يقال له ديلم فقيل لهم حمراء ديلم، ولما جاء عهد زياد فرقهم في الشّام والبصرة والكوفة، وكان لهذا القسم السّادس دور ثقافي في الكوفة والبصرة.

السّابع: ململمة أظهرهم طي.

وقد غير الإمام علي(عليه السلام) تشكيل هذه التّجمعات عندما تولى قيادة الكوفيين فكانت:

أوّلاً: همدان وحمير و«الحمر».

ثانياً: مذحج وأشعر وطي والعلم في هذا القسم يحمله نصر بن مزاحم.

ثالثاً: قيس وعبس وذبيان وعبد القيس.

رابعاً: كندة وحضرموت وقضاعة ومهرة.

خامساً: الأزد وبجيلة وخثعم والأنصار.

سادساً: بكر وتغلب وبقية ربيعة.

سابعاً: قريش وكنانة وأسد وتميم وضبة ورباب.

ولما تم تمصير الكوفة شقت فيها شوارع سكك وكان عرض السّكة خمسين ذراعاً وكانت السّكك تنور أثناء الليل بالمشاعل وقد وصل إلينا من السّكك سكة البريد وسكة العلاء وسكة بني محرز وسكة شبث وسكة عميرة وسكة دار الرّوميين قريبة من قصر الإمارة وكثير غيرها كانت تعرف بأسماء الأعلام والتّجار من قبيل سكة عنترة الحجام وأهم سكك الكوفة سكة البريد وموقعها بين الجسر الّذي كان في الجانب الشّرقي وبين القصر وبين الكناسة وموقع القصر اليوم إلى جانب الجامع من الجنوب الشّرقي أمّا موقع الكناسة فستعرفه في الشّمال الشّرقي بين مسجد السّهلة ومسجد الكوفة، وكانت أرباع الكوفة تنقسم إلى خمسة عشر منهجاً.

فمناهج الرّبع الأوّل- وهو الواقع شمال الجامع- محلات سليم وثقيف وهمذان وبجيلة وتيم اللات وتغلب، ومناهج الرّبع الثّاني- وموقعه في جهة القبلة جنوباً- محلات بني أسد ونخع وكندة والأزد، ومناهج الرّبع الثّالث- وموقعه شرقي الجامع- محلات الأنصار ومزينة وتميم ومحارب وأسد وعامر، ومناهج الرّبع الرّابع- وموقعه غربي الجامع- محلات بجيلة غطفان وبجيلة قيس وجديلة وجهينة وغيرها من عدة عشائر.

لم ينشأ للكوفة سور وإنما كان في الشّمال الشّرقي موضع خندق معروف وكانت مسناة جابر في محلة مزينة وإلى الجنوب الشّرقي نهر بني سليم ومنه يشق سواق وحمامات وأخذ المنصور الكوفيين بحفر خندق يحيط بها يأخذ من الفرات ويعبر بواسطة قناطر لها أبواب وكانت القوارب تجري في هذا الخندق تسهيلاً لأعمال التّجارة، وفي خلال القرن الأوّل لم تكن في الكوفة بئر للاستقاء وإنما كانت بعض أقنية والنّاس يعتمدون على السّقائين الّذين يحملون الماء من الشّريعة وبعد ذلك عرفت بئر علي واستقى النّاس منها وأحدث ابن هبيرة قنطرة الكوفة وربما تكون قنطرة الكوفة هي المكان المعروف اليوم عند العهامة باسم «كنيدرة» وموقعها في الجنوب الشّرقي من الجامع، ثمّ أصلح قنطرة الكوفة خالد القسري وأصلحت بعد ذلك مرات، وقيل أنشئت قبل الإسلام ثمّ سقطت واتخذ مكانها جسراً ثمّ بناها زياد فابن هبيرة فخالد القسري فيزيد بن عمر ثمّ أصلحت بعد بني أمية مرات عديدية ومن المواقع البارزة في وضع الكوفة الهندسي الجبانات والصّحاري فكان يترك في كلّ خطة ووسط كلّ محلة رحبة من الأرض فسيحة ترى أمثالها اليوم في المدن العربية مثل يثرب والنّجف والكوفة والزّبير وشطرة المنتفق يسمونها «صفا» و«صفاوة» و«فضوة» و«مناخة» وكان يطلق على قسم من تلك الرّحاب «الجبانة» وهي المحل الّذي يدفن أهل تلك المحلة موتاهم فيه ويطلق على الباقي صحراء وهو محل الاحتفالات والاجتماعات العامة أقدمها وأهمها جبانة «الثّوية» وهي لثقيف وقريش، وهذه الثّوية تكرر ذكرها في شعر المتنبي وموقعها اليوم بين النّجف والكوفة المكان المعروف عند عامة النّاس بـ «كميل» وهو قبر كميل بن زياد أحد التّابعين المدفون بالثّوية وقريب من الثّوية البسيطة وهي المحلة الجديدة من محلات النّجف المعروفة بمحلة «غازي» وفيها يقول المتنبي:

بسيطة مهلاً سقيت القطارا

تركت عيون عبيدي حيارى

وجبانة السّبيع وهي للمحلة الّتي ذكرت في شعر المتنبي، وجبانة عرزم الفزاري لقيس، وجبانة بشر الخثعمي لعشيرة طي.

وجبانة مخنف للأزد.

وجبانة سالم لبني عامر من قيس.

وجبانة مراد لمذحج.

وجبانة كندة لكندة وربيعة ومحلة كندة وردت في شعر المتنبي.

وجبانة الصّعيديين لبني أسد الّذين هم من قيس.

وجبانة عثير الأسدي كانت أوّلاً إلى عبس ثمّ عادت لعشيرة السّكون ومحلة السّكون ذكرت في شعر المتنبي.

وجبانة رهط زعيم همذان وكان هذا الموقع مشهوراً ومعروفاً للاجتماعات العامة وفيه شيد الحجاج داره، أمّا جبانة ميمون وجبانة يشكر وجبانة يعقوب وجبانة بني عامر فقد قال المستشرق ماسنيون أنّها لم تعرف بعد.

الصّحارى:

صحراء عبد القيس، وصحراء عثير، وصحراء شبث، وصحراء أم سلمة، وصحراء سالم، وصحراء البردخت، نسبة إلى البردخت الشّاعر الضّبي، وصحراء عرزم، وصحراء بني قرار، وصحراء أثير، وكان في الكوفة نوع من الإقطاع وهو إقطاع يتعلق برحاب وسطها دور وإقطاع يتعلق بالأرضين الزّراعية أي إقطاع للسكنى وإقطاع للحرث أمّا الإقطاع للسكنى فقد كان إلى جنب تلك الرّحاب الّتي يطلق عليها صحارى «دور» في وسط سوح فسيحة اتخذت لبعض النّابهين وسكنت على النّظام الإقطاعي، للصحابة منها فقط تسعة عشرة داراً، وفي العهد الأموي اختص أيضاً جماعة بدور عديدة من هذا القبيل أمّا الإقطاع أو توزيع أراضي الحرث ما بين الفاتحين، فلما كان السّواد أو أراضي الكوفة من المواقع المفتوحة عنوة كانت أرضها خراجية وهي على أنواع ثلاثة:

الأراضي المأهولة بعرب الحيرة الّذين انكشفوا عنها على أثر حوادث الفتح وهي الممسوحة والمسجلة بأسماء أصحابها كما نقول اليوم «لزمه».

والأراضي الخاضعة للجباية السّاسانية: كما نقول اليوم «أميرية» والأراضي المملوكة للساسانيين كما نقول اليوم «طابو».

كلّ هذه الأنواع أعطيت إقطاعاً للزعماء والنّابهين قرية قرية ولم يبتدئ الإقطاع على عهد عثمان كما هو معروف بل الظّاهر أنّه كان أسبق من ذلك فإنّ أبا عبيدة الثّقفي بطل «قس النّاطف» ترك لابنه المختار طسوّجاً قريباً من بابل كان إقطاعاً له، وأبو عبيدة لم يدرك عهد عثمان وقد ذكر الطّبري إنّ هذا الإقطاع لما وصل إلى أرض «الملطاط» وهي الواقعة بين الحيرة والكوفة سبب نزاعاً بين أشراف الكوفة.

وفي عهد المتنبي بلغت الكوفة الغاية في العمران فكانت مساحة المعمور منها ستة عشر ميلاً وثلثي ميل وفيها خمسون ألف دار لربيعة ومضر و«٢٤٠٠٠» دار لغيرهم من العرب و«٦٠٠٠» دار لأهل اليمن وذلك في عام ٣١٤ للهجرة حسبما ذكر ذلك بشر بن عبد الوهاب القرشي.

الحالة الاقتصادية وأثر المال في الكوفة

وجد العمل المالي المتقن في الحيرة أوّلاً، ثمّ الكوفة، ثمّ المدائن، ثمّ بغداد، وإليك التّفصيل:

كانت الحيرة محطة تجارية كبرى بين بلاد الفرس والهند، وبين سورية وبلاد الرّوم واليونان، فعظمت الحركة الاقتصادية فيها وفاض المال حتّى أنّ أهالي الحيرة من سعة ذات اليد كانوا أوّلاً يتعاملون بالذّهب وزناً: فقد ابتاع أوس بن قلام لأيوب بن محروف أرضاً لبناء دار بثلاثمئة أوقية ذهباً وأنفق على عمارتها مائتي أوقية وكان من العباديين نصارى الحيرة الصّيارفة والتّجار.

ولما جاء دور الكوفة نشأت فيها مدينة الرّزق كما يقول البلاذري أو دار الرّزق الّتي أنهضها المسلمون في الكوفة، ومثلها في البصرة والفسطاط وكان يجمع في هذه الدّار متاع المقاتلة أوّلاً ثمّ أصبحت دار مضاربة اقتصادية وقد لعبت هذه الدّار دوراً مهماً في الكوفة أثناء الفتن وموقع هذه الدّار كان قريباً من شارع اليهود بين الجسر في شرقي الكوفة وبين المحل المعروف بـ «النّبي يونس» ومقام النّبي يونس اليوم معروف في قصبة الكوفة قائم على النّهر في وسط العمارات من الشّمال الغربي للجامع وعلى هذا فدار الرّزق أو مدينة الرّزق يكون موقعها في محل السّوق المعروف اليوم بسوق آل شمسه أو قريباً منه وكانت أسواق الكوفة تنتظم من قصر الإمارة وموقع شرقي الجامع وإلى جنبه إلى دار الوليد بن عقبة من جهة ومن الجهة الأخرى إلى مساكن ثقيف وأشجع وموقعها اليوم ما بين الشّرقي للجامع إلى ما يقارب مسجد سهيل «السّهلة» لأنّ هذه الأسواق تتصل بالكناسة والكناسة – كما ستعرفه– في ذلك المكان، وكانت هذه الأسواق مغطاة بالحصر وعلى عهد خالد القسري عقدت بالحجارة وكان في هذه الأسواق «محكمة القضاء» يجلس فيها «المحتسب» وفي هذه الأسواق الصّيارفة والمسلفون وفيها دكاك العبيد ومحلات المراهنين على الحيوانات العاملة يجمعونها في الكناسة وكانت الصّيرفة عملاً كبيراً ورابحاً في الكوفة لأنّها كانت تموّن

المؤامرات والأحداث بصفقات رابحة وكان المسلفون والصّرافون يمتلكون ناحية البلد بعملهم هذا، ومن هنا تعهد الصّيرفي ابن مقرن للمنصور في عام ١٤٥ للهجرة بالدّعة والطّمأنينة في الكوفة وقد أتقنت الكوفة عمل الصّيرفة ونظمته على شبه «بنوكة اليوم» وصيارفة اليهود في بغداد اليوم مدينون للكوفة بعملهم لأنّ الكوفة كانت تدير المدائن بعملها الصّيرفي مباشرة، وكان في المدائن أقلية مسيحية برعت في الصّيرفة حتّى أصبحت الواسطة الوحيدة بين فضة الفرس وذهب الرّومان، وأكبر محلات الصّيرفة في الكوفة كانت للمسيحيين الّذين كانوا في الحيرة وفي القرن العاشر للميلاد تلقف فن الصّيرفة هذا جماعة من يهود بغداد آخذين له من المدائن.

الكناسة:

كانت أوّلاً تعرف بكناسة أسد ثمّ صارت محلة أو سوقاً أو محطة تجارية كبرى للعرب، وهي في الكوفة مثل المربد في البصرة، وموقعها من المدخل الغربي للكوفة وفيها تمركزت الأشغال التّجارية مع البلاد العربية فكانت موضعاً للحمولة، توضع فيها الأحمال وترفع منها، وكان في ناحية من نواحي الكناسة أسواق البرازين تجري فيها المعاملات على الماشية من بغال وحمير وإبل بيعاً واكتراءً من قبل النّخاسين وهناك يباع الرّقيق، وكان في الكناسة محل للشنق وفيه عرض جثمان زيد بن علي واليوم توجد بناية قائمة بين مسجد سهيل «السّهلة» وقريبة منه وبين مسجد الكوفة يؤمها النّاس وتعرف باسم زيد بن علي ويعتقدون أنّها المحل الّذي عرض فيه جثمانه شنقاً فيكون موقع الكناسة اليوم بين مسجد السّهلة ومسجد الكوفة.

في هذه المدينة الّتي استحوذ عليها المال والماليون، وأهمل فيها مقياس الأخلاق، ولم يعد كثير من الاهتمام بالرّجولة وكرم العنصر والنّبوغ الأدبي نشأ المتنبي من عائلة غير مثرية وكان طموحه يدفعه إلى معالي الأمور وقيادة النّاس لاسترجاع مجد العروبة وما يرد عليها جدتها وقد اصطدم في صباه بحادثة عرفته ما سفّت إليه أخلاق النّاس، من اعتبار المال والمالي قبل كلّ شيء، فقد روى الرّواة أنّه قال أذكر أنّي وردت في صباي من الكوفة إلى بغداد فأخذت بجانب منديلي خمسة دراهم وخرجت أمشي في أسواق بغداد، ومررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة فاستحسنتها، ونويت أن أشتريها فقلت لصاحب الدّكان:

بكم تبيع هذه البطاطيخ؟

فقال: اذهب فليس هذا من أكلك.

فتماسكت وقلت يا هذا دع ما يغيظ واقصد الثّمن!

قال: ثمنها عشرة دراهم.

قلت: خمسة، قال: لا -لا أقبل- ولشدة ما جبهني به وقفت حائراً وإذا بتاجر يعبر الطّريق وسرعان ما وثب إليه صاحب الدّكان ودعى له، مولاي هذا بطيخ باكور بإجازتك أحمله إلى البيت؟

- ويحكم بكم؟

- بخمسة دراهم.

- لا لا بدرهمين.

فباعه بدرهمين وحمل البطيخ إلى بيت التّاجر.

فقلت يا هذا ما رأيت أعجب من جهلك استممت عليّ وفعلت فعلتك التي فعلت لأني أعطيتك خمسة دراهم وتبيعه بدرهمين محمولاً!

- اسكت هذا يملك مئة ألف درهم.

من هذا الاعتبار وهذه العظة انطوى المتنبي على عقيدة راسخة بأنّ المال هو الرّكن المهم لما يحاول ويريد وقد طفحت هذه العقيدة على لسانه أثناء مدحه لكافور حيث يقول:

ودبّره تدبير الّذي المجد كفّه

إذا حارب الأعداء والمال زنده

فلا مجد في الدّنيا لمن قلّ ماله

ولا مال في الدّنيا لمن قلّ مجده

مدرسته:

كانت المدن ولا تزال دون الرّيف والقرى مركزاً للعلم والفن والأدب لأنّها أوفر مؤناً وأوسع عمراناً، تتوفر فيها الوسائل المهيئة للحركة الفكرية أكثر من غيرها، لأنّ العمران ووسائل العمران تستتبع شيئاً من الغنى والرّفاهية، وهذه تستتبع شيئاً من الرّقي في الفكر والعاطفة والذّوق وعند ذلك يحدث الرّأي وتبتدع الطّريقة فينشأ العلم، ويعمر الأدب، نعم إنّ الشّؤون وآداب الشّؤون تستدعي قوانين، تنتظم علوماً يحصل بها رقي للعقل.

والعراق العربي تركزت شؤونه في الكوفة والبصرة ولا تزال المدن تختلف في لون الذّهنية الّذي يظهر فيها ويكون مدرستها الخاصة تبعاً لتوفر أسباب وتضافر عوامل تستدعي ذلك اللون، على هذا الأساس كانت مدرسة الكوفة مدرسة آداب اللغة العربية على الأكثر دون بقية العلوم لأنّ كلّ شيء فيها عربي، وقد قيل إنّ آداب اللغة العربية ميراث الكوفة، وكانت الكوفة بعيدة عن الذّهنية الهندية الّتي طغت موجتها على البصرة، وبعيدة عن مخلفات الأدب الفارسي الّذي غشى المدرسة البغدادية، ولم يؤثر الحمر أو الأساورة على صبغتها

الأدبية، الكوفة من أساريرِ خد العذراء ذلك النّشر الّذي ازدهر فيه الأدب العربي أيّام الحيرة على عهد المناذرة، وإنّ الكوفة تسلمت الأمانة من الحيرة ولا حاجة بنا إلى رواية حماد القائلة: إنّ النّعمان بن المنذر نسخت له أشعار العرب ومزاياهم الأدبية فاختزنها في قصره الأبيض، وكان النّاس من الكوفيين يشيرون إلى ذلك المكان قائلين أنّ هنا كنزاً حتّى جاء المختار وكشف الموضع فظهرت كنوز العرب الأدبية، وموقع القصر الأبيض اليوم في «الجعارة» نهض عليه بيت آل زوين أو مضيفهم، وهم بيت علوي شريف وإلى اليوم يسمون ذلك المكان بالقصر، وفيه آثار للعمارة القديمة من بقايا أسوار وجدر لا حاجة بنا إلى هذا لأنّ وحدة المكان والزّمان واللغة ورابطة الدّم وانسكاب الحيرة في الكوفة يستلزم أن تتحول المزايا الأدبية من الحيرة إلى الكوفة كما أنّها ولا شك تحولت على مثل هذا من الكوفة إلى النّجف فتكون الحبرة قد انسكبت في الكوفة، والكوفة قد انسكبت في النّجف، وعليه فإنّ خد العذراء الّذي من أساريره اليوم مدينة النّجف، وفي جنوبها على عشرة أميال الحيرة، وفي شرقيها على خمسة أميال الكوفة، كان ولا يزال محطة الأدب العالي للعروبة.

كانت مدرسة الكوفة على عهد المتنبي عربية محضة تعرف ذلك جيداً من كتاب ابن النّديم «الفهرست» فقد كان ابن النّديم معاصراً للمتنبي وتأخر عنه قليلاً وإنّ كتابه هذا خير دليل على لون الحركة الفكرية في الكوفة أيّام المتنبي تجده يخبرك عن الأقلام العربية وآثارها في الكوفة، في هذه المدرسة العربية تثقف المتنبي ثقافة عربية بحتة دخل وهو صبي كتاتيب الأشراف وبعد أن تخرج منها انخرط في صفوف الجامعة الأدبية في الكوفة، وهي تلك الحلقات والمجالس العلمية الأدبية الّتي كانت تنعقد في مسجد الكوفة وفي الضّاحية: وقرأ على أئمّة الأدب العربي، وتوفر بالاطلاع على أخبار العرب ومنازلهم ومياههم، أمّا مبلغه في اللغة فتشهد له أوّلاً المجموعة الغالية الّتي اشتمل عليها ديوانه وثانياً ملحه ونوادره المروية في مجالس علماء اللغة، ومنها شهادة أبي علي عند ما استجوبه عن الجموع على وزن فعلى.

وأمّا خبرته بمنازل العرب ومياههم فتشهد له قصيدته المقصورة فقد اشتملت تلك القصيدة على كثير من المنازل والمياه الّتي سلكها عند جفلته من مصر، أنّ الطّريق الّتي سلكها وذكرها في مقصورته طريق غير مسلوكة لا يتغلغل فيها وينفذ منها إلا الخريت.

وقد صقل ثقافته العربية تجواله في البادية وتطوافه في الجزيرة أوّل نشأته محاولاً تجديد ما فيه من أخلاق العروبة وتقاليدها حتّى طبع نفسه بذلك الطّابع العربي النّاصع وجدد ما فيه من روح ودم، ولما عاد إلى الكوفة توفر على المكتبات العامة ودكاكين الوراقين، تلك الحوانيت الغاصة بالورق الصّيني والتّهامي والخراساني والقرطاس المصري والجلود والصّكاك الّتي حفظت علوم العرب ونتاجهم العقلي وقد كان غاية في الحفظ كما تشعر بذلك قصته في حانوت أحد الوراقين عندما استعرض من أحد الدّلالين كتاباً من كتب الأصمعي.

الحالة الاجتماعية

إنّ اجتماعيات الكوفة في عصر المتنبي كانت خبيثة وفاسدة لعبت بها الأهواء واستحرت الأحقاد وطغت بالدسائس وكانت الحوادث قد عركت الكوفة وضعضعتها القرامطة عدة مرات وفي واحدة من وقائع القرامطة على أبواب الكوفة اشترك صاحب الوفرة شاعرنا وهو في مقتبل العمر وكانت الواقعة بين العذيب وبارق وهما قصران من قصور الحيرة على مقربة من الكوفة كما نوه بذلك في قصيدته:

تذكرت ما بين العذيب وبارق

مجر عوالينا ومجرى السّوابق

كان النّاس في الكوفة شيعاً يفتك بعضهم ببعض وكان قد نجم قرن الأعاجم الّذين قد حمستهم ثاراتهم ودفعتهم أوتارهم أولئك الأغيار الّذين قهرتهم الغلبة ولكن نعراتهم القومية ملء جوانحهم وحنينهم إلى الوطن مكبوت في نفوسهم وبإزائهم تاريخهم وجامعتهم وبلادهم وتقاليدهم، بهذا الدّس للعروبة شبت الثّورة وانحاز العرب عن الدّولة إلى الفرات وسيف البادية، فكانت إذا أطفئت نائرة في جانب تسعرت نائرة في الآخر وإنّي شديد الاعتقاد بأنّ المعول الأوّل للهدم هو ترك العبّاسيين للكوفة شاغرة واعتمادهم في دولتهم على غير العرب ولم يكن صدوف العبّاسيين عن الكوفة إلا صدوف عن مراكز العروبة لأنّ العروبة في العراق من قبل ومن بعد في الفرات وباديته وإنّ الاتصال الوثيق الموجود بين الرّيف الفراتي وجزيرة العرب هو الكفيل بحفظ العروبة العراقية وتجديدها ولا تزال الموجة العربية تطفو الفرات من الجزيرة فتجدد عروبته وتبعثها جذعة ففي كلّ قرن أو أقل من قرن يحتضن الفرات قبيلة هابطة من الجزيرة ووافدة عليه وفوق ذلك الرّوابط العشائرية والعلاقات النّاشئة من الاتصال الاقتصادي والتفلّي للمرعى وعند ما كشر المكروه للعرب ولمسوا انحياز الدّولة عنهم رجعوا إلى عزتهم القومية وانكمشوا في النّواحي والأطراف فانتثرت السّبحة وضاع الرّعيل ومن يقوده.

بهذه البعثرة اتضعت الأمة باخلاقها وفسدت العامة من أهل المدن حتّى اضطربت مقاييس الأخلاق وصار النّاس

يقيسون بمقياس الظّاهر وبطلت موازين الرّجولة وعلى مثل هذا جاء دور أبي الطّيب وقد ألم بكلّ ذلك ولمسه بيديه وشخص الدّاء الّذي خامر العروبة فجاء بالاحتجاج الصّارخ والثّورة الأدبية المشبوبة، لقد اصطدم قلبه بتلك الأحداث وكان الذّكاء وبعد النّظر والتّجربة والاختبار والاختلاط قد ملأت كلّ هذه قلبه وشدت عقيدته بفساد أقيسة النّاس وبطلان مذاهبهم في الحياة وعرف أن لا صحيح غير الاعتماد على النّفس والثّقة بها وبما فيها من اعتداد وقوة فانتزع تلك الحكم الغالية بضرب من القول السّاخر، لقد غمره التّعجب مما يرى وما يسمع وامتلأ قلبه دهشة فظهر في كثير من نواحي ديوانه صوغ من التّعجب محفوف بسخرية واستهزاء.

شاهد المتنبي فتك الشّعوبية وتطاول الفرس والرّوم والتّرك والدّيلم ورأى الفرق والأشتات تلعب أدوارها المحزنة في الملك والدّولة فضرب في الآفاق والنّواحي يطلب مركز القوة ويفتش عن عين الميزان، يفتش عن الماثل الّذي يكون ملء عينيه وصدره.

ترك العراق الجياش بالفتن ورؤوس الفتن فجانب الكوفة وما فيها من شيعة وخوارج وعباسيين وعلويين وزهد ببغداد وفرسها وتركها وديلمها وعافتها نفسه المليّة بالثّورة دخلها وهو واجم وزايلها وهو كاظم أما البصرة فأكبر احتجاج له عليها إهماله لها كأن القطر خال من البصرة والمربد وسارت به همومه فجاء الطولونية والاخشيدية والسلجوقية والفاطمية والحمدانية وقد تضرم وتبرم من الجميع إلا الحمدانية فقد وجد في سيف الدّولة ما تتطلبه العروبة لو تخلص ماثل آل حمدان من دس الشّعوبية والأعاجم الّذين عرفوا في سيف الدّولة ما عرفه المتنبي فأقاموا الحواجز والعقبات في طريقه وسدوا عليه المنفذ ولم تكن بغداد بريئة من محنة سيف الدّولة بالرّوم.

من خلال هذه الجولة وضمن هذا الطّواف يظهر للباحث الّذي يتذوق الشّعر ويعرف أهدافه عروبة المتنبي وما يحاول للعروبة، تراه عندما يتصل بالعربي مثل بدر بن عمار وأبي العشائر وسيف الدّولة يذكو نفسه وتتفتح نفسه ويسمو بها عامرة بالآمال صخابة بآلام تهزّ القوة والرّجولة وترسم العروبة واضحة بمجيدها وتقاليدها حتّى تكاد تسمعها عجاجة بالنّخوة هتافة بالحفيظة لاسترجاع العز وتدارك الثّأر.

وتراه عندما يتصل بغير العربي مكبوتاً مكبوداً تعلو شعره مظاهر الحزن والسّخرية والتّململ وتقاطع قصائده وثبات لا تنسجم ومجرى القصيدة وما هي إلا ثورة الطّبع وصيحة النّفس معلنة أنّ هذا المدح هجاء لأبناء جيله الّذين لم يجد فيهم الممدوح كما صرح في مقصورته حيث يقول:

وشعر مدحت به الكركدن
بين القريض وبين الرقى
فما كان ذلك مدحاً له
ولكنّه كان هجو الورى

من تلك المدينة العربية والمدرسة العربية والحالة الاجتماعية للعرب نبغ فتى كندة وهو ثورة عربية يحمل الرّسالة البالغة للعرب في أسلوبه في أهدافه في رجولته في القوة البادية عليه والمثل العليا والحكم المستلة والمنتزعة من روح العرب وأخلاقهم وقرارات نفوسهم ترى بكل وضوح أثراً لصقال البادية فيه لا تلك القصيدة البدوية «من الحآذر» ولكن في أسلوبه الخطابي فإنّك إذا سمعت قوله:

وقلنا لها أين أرض العراق
فقالت -ونحن بتربان- ها

لا تشك بأنّه ابن البادية لأنّ هذه المجاوبة مختصة بالبدو لا يعرف ملحقها ولا يتذوق طرفتها إلا ابن البادية أنّ كلمة «ها» البدوية تطوي دائماً الفيافي والمسافات البعيدة فتربان في الحجاز بضاحية المدينة المنورة طوت المسافة ما بينها وبين العراق رقيلة البدوي ها.

ومن صقال البادية فيه كثرة استعماله للتصغير في الألفاظ ومعرفة مواقع ذلك الاستعمال وترى آثار مدرسته في مطاوي ديوانه فللغة ميزات في مواطن كثيرة منه وللنحو باصطلاحاته وقواعده آثار كثيرة في شعره أما حكمه البالغة وأمثاله السّائرة فلم تكن مدرسية مستمدة من النّظريات العلمية ولا أثر فيها للذهنية الهندية ولا الفارسية إنّما هي وحي العروبة ومظهر من مظاهرها تلك المظاهر الّتي ألهمت ابن أبي سلمى وقس ساعدة وكثيراً من نوابغ العرب ولا غرو فالعالم فيض فلسفة ومخزن لغوالي الحكم وقد كان ديدن العرب الأقحاح انتزاع جوامع الكلم من التّجارب والاختبار استلهاماً من مظاهر الكون ونفوذاً في بواطنه كما طفح بذلك الأدب الجاهلي وأدب المخضرمين الّذين نبغوا في البادية وحتّى اليوم تتمالح العرب في الضّاحية بمثل هذه من جوامع الكلم والأمثال السّائرة مستخرجة لها من إلهامها ووحي الوقائع لا من الكتب والمدرسة.

أمّا ما جاء في شعره عما وراء العالم كقوله:

تخالف النّاس حتى لا اتفاق لهم
إلا على شجب والخلف في الشّجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة
وقيل تشرك جسم المرء في العطب

وقوله:

تمتـــع مـــن ســـهاد أو رقـــاد

ولا تأمـــل كـــرى تحـــت الرّجـــام

فـــإنّ لثالـــث الحـــالين معنـــى

ســـوى معنـــى انتباهـــك والمنـــام

فهو لحن فطري لا دراسي، وكذا ما جاء في مدحه لابن العميد:

مـــن مبلـــغ الأعـــراب إنّـــي بعـــدها

شـــاهدت رســـطاليس والاســـكندرا

وســـمعت بطليمـــوس دارس كتبـــه

مـــتململاً متبـــدياً متحـــضرا

وقوله:

وكـــم لظـــلام الليـــل عنـــدي مـــن يـــد

تخبّـــر أنّ المانويـــة تكـــذب

وقوله:

يمـــوت راعـــي الـــضّان فـــي جهلـــه

موتـــة جـــالينوس فـــي طبّـــه

فهي من مطالعاته وقراءته لا من دراسته.

وقد سما أسلوب المتنبي عن أساليب الحضر وطريقة بيانهم حتّى أنّه إذا تناول المعنى الدّقيق من المعاني الّتي تخطر للحضري أكثر ما تخطر لابن البادية يصوغه صياغة بدوية صرفة فتراه وهو يريد وصف وقع المطر على الأرض وأثر ذلك الوقع يقول:

لـــساحيه علـــى الأجـــداث حفـــش

كايـــدي الخيـــل أبـــصرت المخـــالي

ولم يفت المتنبي مظهر من مظاهر العروبة إلا مظهر واحد وهو الرّجوع إلى النّسب والافتخار به وتلك عادة لا تفتر عنها العرب ولكن صاحبنا تنكب عنها وإن ظهرت على لسانه في أنحاء القول كما قال:

ومـــن تكـــن الأســـد الـــضّواري جـــدوده

يكـــن ليلـــه صـــبحاً ومطعمـــه غـــصبا

وقوله في جدوده:

وبهـــم فخـــر كـــل مـــن نطـــق الـــضّاد

وعـــوذ الجـــاني وغـــوث الطّريـــد

ما صدوفه عن هذه الظّاهرة إلا شنشنة النّوابغ والعظماء الّذين لا يعتمدون إلا على أنفسهم ولا يعتدون بسواها.

نبغ المتنبي كقطعة أدبية مصورة بكل ميزات العروبة أبدع تصوير ونضج وهو مليء بآلام العرب وآمالهم نافذاً إلى الصّميم من أخلاقهم ونفسياتهم ينقر على الوتر الحساس من تقاليدهم وعاداتهم فكان لسان القومية الفياض وقلبها الجياش يقول لأخيه العربي فيلمسه حركات قلبه ونزعات روحه ويوضح له مبهمات نفسه، والقومية العربية شديدة التّمسك بعنعناتها الّتي يشدو بها المتنبي.

وقد وفق لأمرين لم يوفق لهما غيره قوة البيان والبيان معجزة العرب الّتي تهيمن على ألبابهم وتمتلك شواعرهم ألم تر أن المعجز الخالد للنبي العربي ذلك الكتاب المبين وكم نوّه(ﷺ) بالبيان وقد عرف علماء آداب اللغة العربية منزلة البيان عند العرب فعقدوا له علماً خاصاً وكان المتنبي آية في بيانه.

والأمر الثّاني: أنّه صادف العرب مغمورين بالشّعوبية قد رسبت كل ميزاتهم القومية حتّى بعدوا عنها وطال عهدهم بها لارتكابهم في شؤون الحضارة والزّيف فجاءهم ذلك الأغر المحجل المتغلغل بالعروبة والمتولج على آلامها وآمالها وجعل بموهبته ونبوغه وقوة بيانه يستل المثل العليا من صميم العروبة ويقدمها للعالم العربي المغلوب على قوميته العزيزة فتحن النّفوس وتتنزّى القلوب وتعلق بذلك النّشيد القومي وسرعان ما تشيع النّغمة طافحة على الشّفاه فياضة على الشّعور العام، هذا فيما اعتقده سر شهرة المتنبي وخلوده.

❖ ❖ ❖